أحلام أندلسية

لزكي المحاسني

ما ذكرت الأندلس الا تمثلت سماء ما طاولتها سماء ، تعلقت في أجوازها كواكب ونجوم ، والتمعت فراقد . ثم دار الفلك دورته ، فتجهم وجهه واربدّ أفقه ، فاذا هو شامس قد بدلي اللألاء والدراري بالظلام الطامس والليل الدامس ، والحنادس

ما يوم قرطبة وعهدها الزاهر ، ما قومها العظماء الاكابر ، ما مصرعها القاهر . أفلا يزال فيها نهر الوادي الكبير يموج ماؤه ، وتعبق على ضفتيه الطيوب وهو يروي البساتين النضرة ، والرياض الزاهرة . أين مسجدها الأكبر وقد كان جامعة العلوم العربية وورد الغرب الظامىء . هيهات لقد ذوت زاهيره ودرست معالمه . وأين طليطلة ونهرها تاجة ، واشبيلية ومجونها ولياليها المزوية بالانهار . وما خبر غرناطة ؟؟

كنت أمس أقرأ في كتاب ألفه « ايميليو القنطرة » وهو أديب اسباني من اواسط القرن التاسع عشر لعله كما يشير لقبه كان عربيًّا قبل بضعة جدود . سمى كتابه « الكتابة العربية المنقوشة في غرناطة » . وجدته يسمي غرناطة بدام الاندلس ويقول عنها : « انها حاضرة الصقع وأم المصر وبيضة ذلك الجو الحصانة وضعها وطيب هوائها ودرور مائها ووفور مدتها وهي مأمن الخائف » . وقف هذا الاسباني على مشرب بناه أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد ابن نصر عام تسعة وأربعين وسبعمائة قرب دهليز السفراء في قصر الحمراء فوجد مكتوبًا فوقهُ

فقت الحسان بحليتي وبناحي ... وعلوت اليَّ الشهب في الابراج
يبدو اناء الماء فيَّ كما بدي ... في قبة المحراب قام يناجي
من جاءني يشكو الظماء فوردي ... صرف الزلال العذب دون مزاج

وفي ساحة الأسود قد نقش من هذا الشعر قول شاعر :

ألم تر ان الماء يجري بصفحها ... ولكنها سدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه ... وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة ... تفيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذ غدت ... تفيض الى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض ... عدتها الحيا عن أن تنال عواديا

وفي استغراقة حنان تجلى لي في قصر الحمراء دار الريحان وبركتها فرأيت البرج الكبير

وبين يديه القبة الصغيرة قد ارتفع على قوائم والسرح عن جانبيه رواقان في بُرْد ظلالها أشجار وقد استحم خيال كل ذلك في بركة متمادية في الطول متناسبة الضفاف. لقد رأيت في عالم الوهم قصراً ورواقين وشجراً. حلم لا يلبث أن يتكسر ويزول حين يُلقى في صفحة البركة بحجر. وغرفة السفراء، ومعطفرة الماء وتمدد القصر مرسيقى بناء وعمارة تعزف أبداً لحناً عربيًّا مرمريًّا متوجاً بالنقوش المنمنمة الملتفة، والحنايا وكأنهن أضالع الزمن الباكي ما زال لها زفرة على المجد الاندلسي الآفل وقد كتب عليها بخط الكوفي (لا غالب إلا الله)

لقد طوفت بكل هذا حتى أتيت عليه فكانت حسراتي مسكوبة على أحجار القبور حيث يرقد ملوك غرناطة وقد كتب على جدار ضريح منها مرثية لأبي الحجاج منها قول شاعرها

يحييكَ بالريحان والرَّوْح من قبرٍ رضى الله ممن حل فيك مدى الدهر
ولست بقبر انما أنت روضة منمنمة الريحان عاطرة النشر
لقد حطَّ فيك الرحل أيُّ خليفة أصيل المعالي غرة في بني نصر
هو الدهر ذو وجهين يوم وليلة ومن كان ذا وجهين أمنَ في الغدر

تركتُ كتاب ابن القطرة الاسباني وأنا أطوي كتاب الحمراء الذي ألفته عبقرية العرب. ولقد تلوت فيه المجد العربي الزائل ثم ذكرت أبا عبد الله، فسألت كيف وقف يبوح على ملكه قبل الرحيل. أنها لحشو مسمع الدهر كلمة امرأة أطلت عليه من فوق جدار في «زهرة الغرب» فهتفت به وهو يبكي

ألا فابك كالنسوان ملكاً مضيَّعاً لانك لم تحفظه حفظ رجال

والتفت الى الأدب الأندلسي، وهو ما بقي في أيدينا من بعض تراثهم. فقلت من طبيعة الارض فاطبع الأدب. وبلاد الاندلس كما وصفها طارق بن زياد «هي الشام بهاؤها وسناؤها، واليمن بلطف جوها، والهند بأزهارها وطيوبها، ومصر بخصبها، والصين بحجارتها الكريمة» وهذا سر تفتح عبقريات العرب فيها، فقد وجدوا بلادهم في عهد الاسلام، مجموعة فيها. تراب خصيب ورياض أريضة غناء وجنات تجري فيها الانهار ونسيم كأنه نفح الفراديس. وهي لا تزال الى اليوم عليها طابع العرب والاسلام. فطاحونٌ ذات على الأنهار كطاحوننا في الشام، ومآذن تعلن اليوم في أعاليها النواقيس، وأفنية دور كأنها صحونٌ في بيوت دمشق. صنعت الخادع حواليها وفي وسطها بركة ماء وغرائس من الأزهار تسلقت على الحيطان. ووراء عيون النساء وقاماتها وسواعد الرجال وديناتها أعمدة تتطلع من خلال الانسان وتقول من ذرات الحياة لأجدادنا العرب. وكرَمٌ حاتمي ودماثة وجه الضيفان. وشمائل ... أكثرها عربي الـ ... بعد الغرور و ... الخيبة

انتهت هذه البلاد على بحر الروم من شرق وعلى الأطلسي من غرب وتراءت بشطئها

الجنوبية فوجهت دير المغرب البعيد ، ورفعت هامتها من شمال على جبال البرنه فأطلت من تلك الروابي على فرنسا ذاكرة « بواتييه » . ملكها العرب أواخر المائة الهجرية الاولى. فكان لها أدبٌ بنهج وثقافة عربية حديثة ، وعادات وسمهم بها الاقليم . نزل العرب تلك المنازل وقد خلفوا وراءهم في المشرق وتراً لا يمحى وألماً لا ينسى . جاؤوا يجرون أذيالهم الأموية إلى منفاهم على ضفاف الوادي الكبير . فبدت تقية زاهية خلعت عليهم أجلى رونق للأدب العربي كان أدبهم كالمرآة الصافية تراءت فيه كل الملح الأندلسية فبدا خيالهم رقيقاً وشعرهم هفهافاً وكتابتهم طلية وفكرتهم ذات نقاء . وكان للاسبانيين قبلهم فنون شعر وفنيات موسيقى فضاعت كالجدول في النهر . وكانت من كل تلك العوامل ولادة ثقافة جديدة لا عهد للعرب بها من قبل . ثقافة فاضت على اوربا فكانت جامعات الأندلس مدارس يؤمها الفرنجة فمنها قبسوا شعلة النهضة العلمية الحديثة في أوربا . وكان الأدب الاندلسي واحدة العقد في تلك الثقافة العربية الحديثة . فنشأ في الشعر العربي الموشحات والزجل وانبسطت فيه أوصاف الطبيعة والعمارة وفنون الغزل ومطارحات الخمرة. وكان هذا الأدب الحديث يمضي وراء أدب العرب في الشرق مضيّ الولد خلف ابيه . لكن كانت عليه طلاوة ورقة جعلت نسجه مشرقاً وألفاظه سهلة يتحلى كثيرها بالموسيقى ، وأسلوبه واضحاً سلساً أخاذاً . ومضى في ركب الشعراء والادباء ابن الخطيب وابن سهل وابن وهبون وابن عبدون وابن خفاجه وابن عمار وابن هانيء والقسطلي وابن شهيد وأديبات كان فرقدهنّ ولادة بنت المستكفي وما ذكرتها الاّ هاجت بلابل خاطري بأضحى التالي بديلاً من تدانينا فأعقبت الوزير ابن عبدوس لومة لائم وحنت إلى ابن زيدون ريحانة الشعر الاندلسي الذي هتف الزمن بقوله :

يا اخا البدر سناءً وسنى حرم الله زماناً أطلعك

لقد دخل العرب الاندلس بوفد أطمينة خطبة طارق،وكان لمعان سيوفهم أول نور أطلّ من العرب على ظلمات هاتيك الاقاليم. وحين وطّأت لهم الدنيا مكسبها وازدهرت بهم المدنية الطريفة التي بعضهم على بعض وقت في أعضادهم حروب الفتك فرد باند وأضرابه فضاع ملكهم في الغرب كما ضاع في الشرق . فأغمدوا السيوف وهي مكسّرة وشروا الأذيال للرحيل وهي ممزّقة وهلكوا بين سمع الارض وبصرها تاركين بعدهم مثل هذا الكلام يروي تاريخ فتوحهم وسيرة عزهم : يطوف في دياره الذكرى فلا يجد الاّ المجد الدارس والطلل الباقي فيفزع إلى الادب الاندلسي يقرأ فيه موشحاً وهو يمسح من اطراف عينه دمعة فينشد مع لسان الدين :

هذه الدنيا إذا الغيث هما يا زمان الوصل في الاندلس
لم يكن وصلك الاّ حلماً في الكرى أو خلسة المختلس